المحاضرة الثالثة: نشأة وتطور المعجم العربي

أولا: نشاة المعجم العربي: يتفق الجميع على ان اول معجم عربي هو معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي؛ فان كان العرب قبل الخليل لايعرفون المعجم فأن حاجتهم اليه لم تكن معدومة؛ ولئن كانوا لايعرفون المعجمات، فإنهم كانوا يرجعون الى اهل العلم ويسألونهم، وكان اهل العلم بالاجابة عن الأسئلة كانوا يؤدون عمل المعجم.

وحينما بزغ فجر الإسلام، دعت الحاجة "الى أن يسألوا عن معاني الكلمات ذات الإصطلاح الجديد، كما كانوا يسألون عن بعض الكلمات التي استغلق عليهم فهم معناها[1].

وهذا ابن عباس (ت68ه) يقول: "الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه[2].

وتحدثنا الروايات أنّ عبد الله بن عباس كان يُسأل عن ألفاظ معينة من القرآن الكريم، فيفسرها للناس ويستشهد على تفسيرها بأبيات من الشعر العربي[3]، وقد عرفت هذه المسائل باسم "سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس"، وقد ذكرها السيوطي في الجزء السادس والثلاثين من كتابه "الاتقان في علوم القرآن[4]".

فهذه المسائل كانت النواة الأولى للعمل المعجمي؛ فالفكرة المعجمية وجدت عند العرب قبل أن يوجد التأليف المعجمي الذي تأخر عندهم.

وحين ألف العرب معجماتهم كانوا مبتكرين غير مقلدين، يقول الدكتور محمد حسين في أصالة المعاجم العربية، بعد أن ذكر الأسباب الحقيقة لتأليف المعاجم: " لقد دعتهم إلى وضعها دوافع عربية محضة، وعلى رأسها خدمة القرآن الكريم كتاب العربية

---

(1) د/ محمد الرديني، الرموز على الصحاح – دراسة منهجية-، ص12-13

(2) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، تح مركز الدراسات القرآنية، السعودية، 119/1

(3) رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، القاهرة، 1973م، ص109

(4) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن 120/1

المقدس، ودستور الدين، وصون العربية من الضياع، وحراستها من الخطأ والدخيل، ومع هذا لم تتهيأ السبل التي تكفل للعرب الإطلاع على تلك المعجمات الأجنبية القديمة"[5] .

ثانيا: دواعي التأليف المعجمي عند العرب: بدأت الدراسات المعجمية في اللغة العربية للأغراض التالية:

أ- حراسة القرأن الكريم من سوء النطق أو الفهم.

ب- حماية العربية من اللحن.

ت- صيانة الثروة اللغوية(الفصاحة) من الضياع.

ث- إحصاء مفردات اللغة بمعانيها وشواهدها .

كان شغف العرب بلغتهم منذ الجاهلية وزاد اعتزازهم بها بمجيء الإسلام لأن العربية أصبحت لغة القرآن[6] .

وإذا كان الغرض الرئيس من وضع المعجمات، هو جمع مفردات اللغة ومحاولة حصائها وشرحها والاستشهاد لها بمختلف الشواهد الشعرية والنثرية –كما ذكرت ذلك سابقا– فهل معنى هذا ان كل عربي كان يفهم مفردات اللغة كلها ويحيط بمعناها ؟

ربما توهم كثير من الناس ان الإجابة عن هذا السؤال تكون بالإثبات لكن الحقيقة غير ذلك، فان العامة من عرب الجاهلية، وما بعدها كانوا ربما عرفوا الكلام بمفرداته، وغابت عنهم معانيه، وقد أكد ذلك ابن فارس ذلك بقوله: "وما بلغنا أن أحدا ممن مضى ادعى حفظ اللغة كلها"[7] .

وقد روي عن عمر بن خالد العثماني، وهو عالم لغوي أنّه قال: قدمت علينا عجوز من بني منقر تسمى أم الهيثم، فغابت علينا ، فسألنا عنها أبو عبيدة (ت209ه) ، فقالوا : إنّها عليلة، فقال: هل لكم أن تعودوها ، فجئنا ، فستأذنا ، فقالت: لجوا ، فسلمنا عليها ، فإذا هي عليها أهدام وبجد (ثياب مرقعة) ، وقد طرحتها عليها ، فقلنا : ياأم الهيثم كيف تجدينك ؟ فقالت: كنت وحمى

(5) محمد حسين آل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب، ط1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1980م، ص22

(6) ينظر، الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية (المقدمة)، تح ، الدكتور أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، القاهرة،1956، ص27

(7) المزهر، 64/1

بالدكة(الودك) فشهدت مأدبة، فأكلت جبجبة من صفيف هلعة، فاعترتني زلخة، فقلنا: ياأم الهيثم: أي شيء تقولينَ! فقالت: أوللناس كلامان؟ والله ماكلمتكم الا بالعربي الفصيح"[8].

وهذا الذي وقع لايقتصر على عامة الناس بل يتعدى الى الخاصة من الناس وقد ذكر القرآن الكريم بعض الالفاظ استغلقت معانيها على فصحاء العرب، من أمثال عمر بن الخطاب الذي لم يجد تفسير لكلمة "الأب"؛ فقد جاء في الاتقان[9] برواية عن أنس أنّ عمر بن الخطاب قرأ على المنبر﴿وفاكهةَ وأبا﴾ عبس. 31

فقال هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب، ثم رجع إلى نفسه، فقال إنّ هذا لهو التكلف يا عمر[10]. وللفظة التخوّف قصة أخرى مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وتكرر الأمر مع النبي(ص)، فعلى الرّغم من ملازمة الصحابة له إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من التلفظ عليه الصلاة والسلام بألفاظ لم يفهمها الصحابة. ومن ذلك حديثه(ص): "إنّ أحبكم إليّ وأقربكم مجلسا مني يوم القيامة أحسنكم أخلاقا، وأبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة، هم الثرثارون المتشدقون المتفيقهون، قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا الثرثارين المتشدّقين فمن المتفيقهون؟ قال المتكبرون"[11].

إنّ تفسير القرآن، وشرح غريب الحديث في عصر النبوّة، وعصر الراشدين، يدلاّن على وجود معجم غير مدوّن. وغير مرتب ترتيب المعجمات الحديثة، ويسمى معجما تجوزا لأن المعجم له ضوابطه.

وكان صنيع ابن عباس يمثل ارهاصات لبداية المعجم المسموع؛ فقد وقف على لغات العرب، أسرارها ودلالات مفرداتها، ومعرفة غريبها ونوادرها، وعلى اشعار العرب وخطبهم وأمثالهم، وأعانه علمه الواسع بالعربية ان يفسر لسائله كلمات اللغة تفسيرا دقيقا، وقد نسبوا غريب القرآن والتفسير إليه، ولاشك أنّه بهذا وضع اللبنة الأولى لبناء فكرة المعجم[12].

---

(8) محمد عبد الكريم الرديني، المعجمات العربية دراسة منهجية، ط2، دار الهدى عين مليلة الجزائر، ص27، 28
(9) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 113/1
(10) ينظر، المعجمات العربية دراسة منهجية، ص 28
(11)
(12) ينظر، المعجمات العربية دراسة منهجية، ص 30

وهناك من سار على نهج ابن عباس، منهم "ابّان بن تغلب"؛ فقد كان فقيها، وإماما لغويا[13] ؛ ولذا يعتبر ابن عباس وإبّان هما أول من وضعا نواة المعجم العربي، ثمّ جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي وقد جسد الفكرة في كتابه "معجم العين"؛ إذا فالخليل يعد بحق أول من صنف معجما جديرا بهذا الاسم؛ لأنه جمع ألفاظ اللغة وشرح معانيها ورتبها ترتيبا علميا، ولم يكن مقلدا لأحد في ذلك[14] .

ثالثا: تطور حركة التأليف المعجمي العربي: لقد قامت حركة التأليف في المعجمات العربية على أساس المادة التي جمعها اللغويون من البادية في القرن الثاني الهجري، لقد اتجه عدد كبير من اللغويين الى اللغة يجمعونها، وكانت مهمتهم جمع الكلمات التي نطق بها العرب وتحديد معانيها، فرحل العلماء الى البادية، يسمعون ويكتبون ما نطق به أهل القبائل، وبذلك تمّ أول عمل ميداني في الجزيرة العربية.

وفي مقابل ذلك لاحظ كثير من البدو اهتمام اللغويين بتلقي اللغة عنهم، فهاجروا إلى جنوب العراق، حيث ازدهرت علوم اللغة في البصرة والكوفة، وأخذوا يبيعون المادة اللغوية التي عندهم لكل من ينشدهم من اللغويين، وكان مبدؤهم في جمع اللغة هو جمع الفصيح منها فقط والابتعاد عن الصيغ والالفاظ غير الفصيحة؛ ولذلك صنفت لهجات القبائل المختلفة[15] .

وقد عنى العلماء بالالفاظ وأخذوا يجمعونها من مظانّها، وقد مرت حركة التأليف المعجمي عند العرب بعدة مراحل، مبتدئة في القرن الهجري الأول، وأخذت تنموا تدريجيا حتى نضجت وأكتمل نموها في القرن الرابع الهجري[16] .

ويمكن تحديد هذه المراحل كالآتي:

---

(13) المرجع نفسه، ص 28
(14) المرجع نفسه، ص 28
(15) ينظر، المرجع نفسه، ص 31
(16) ينظر، المعجمات العربية دراسة منهجية، ص 31

1. **المرحلة الأولى:** وهي مرحلة تفسير غريب القرآن ومشكله، وغريب الحديث، وغريب ما ورد في الشعر العربي ونوادره، وما لم يفهمه الصحابة، وكانت هذه الطريقة تعتمد على شرح معاني المفردات مصحوبة بمصادرها من كلام العرب كصنيع ابن عباس في تفسيره لغريب القرآن[17].

2. **المرحلة الثانية:** هي المرحلة التي بدأ بها وضع معاجم شاملة مرتبة على نمط خاص، كالترتيب الصوتي أو الهجائي. وأول من عمل معجمل من هذا القبيل هو الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت175ه)، فقد وضع كتابه العين، ورتب كلماته بحسب مخارج الأصوات، مبتدئا بأقصى الحلق وبدأ بحرف العين الذي كتابه باسمه ومنتها بالشفتين.

3. **المرحلة الثالثة:** رسائل في طوائف خاصة من الألفاظ أو المعاني؛ حيث بدأ اللغويون في حصر مادة اللغة العربية في مجاميع على شكل رسائل خاصة تحوي كل منها الألفاظ الخاصة بموضوع معين، ككتاب أبي زيد الأنصاري (ت215هـ) في المطر، اللبأ، واللبن، والغرائز والجرائم والمشترك اللفظي.

وكتب الأصمعي(ت216ه) في الدارات، والسلاح، والابل، والنخيل والشاء، وأسماء الوحوش، والنبات، والشجر، والكرم، والمشترك اللفظي.

وكتب أبي إسحاق السجستاني(ت231هـ) في الأزمنة، والحشرات، والطير.

وكتب أستاذه أبي يوسف يعقوب بن إسحاق بن السكيت(ت244ه) في النبات والأصوات، والفرق التي تتميز بها بعض الكائنات المتشابهة. ولابن قتيبة(ت276ه) في الرجل، والمنزل، واللبأ، واللبن.

ولابي حنيفة الدينوري(ت281ه)، كتاب النبات، والأنواء. ولابن دريد، ولابن خالويه، ولابي هلال العسكري . . . وغيره.

كما أن هناك كتب الفت في الاضداد لقطرب(ت206) وابن السكيت وابن الانباري(ت327ه) والصغاني(ت659ه) . . . وغيرهم.

(17) عمر رضا كحالة، اللغة العربة وعلومها، المطبعة التعاونية، دمشق سوريا، 1971م، ص20

4. **المرحلة الرابعة:** في هذه الفترة ظهرت معجمات ترمي الى بيان المفردات الموضوعية لمختلف المعاني، أي مرتبة حسب الموضوعات. ،وهذه المعجمات ترمي الى ايراد الالفاظ الخاصة بالموضوع المعقود له الباب، او ايراد النصوص الشعرية الخاصة بالباب واستخراج الالفاظ منها وشرحها.

ومن اشهر المصنفات في هذا القسم مايلي: – الغريب المصنف لابي عبيد القاسم بن سلام(ت224ه).

– كتاب الالفاظ، لابن السكيت(ت244). – الالفاظ الكتابية للهمذاني(ت320ه).

– جواهر الألفاظ، لقدامر بن جعفر(ت337ه). – متحير الألفاظ لابن فارس اللغوي(ت395ه).

– التلخيص في معرفة الأشياء، لابي هلال العسكري(ت395ه) – مبادئ اللغة، للخطيب الاسكافي(ت421ه).

– فقه اللغة، للثعالبي(ت429ه). – المخصص، لابن سيدة(ت458ه)[18].

(18) ينظر، المعجمات العربية دراسة منهجية، ص 36